تمهيد:

الأدب الجزائري هو كل منظوم ومنثور أنتجه أدباء الجزائر منذ نشوء الدولة الجزائرية إلى يومنا هذا ، وهناك من الدارسين من يرى تاريخ دخول الاستعمار الفرنسي للجزائر سنة 1830 للجزائر تاريخا لنشوء الدولة الجزائرية الحديثة ، غير أن كثير من المؤرخين يذهبون إلى أن تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة كان على يد الأمير عبد القادر بتاريخ 27 نوفمبر 1832، على اعتبار أن الجزائر قبل هذا التاريخ كانت تابعة للدولة العثمانية سياسيا وقد توفرت الجزائر على أدباء لم يصلنا عنهم إلا القليل النادر خاصة ما تعلق بالمرحلة الاستعمارية وما سبقها ، لكن الباحث الجاد المتمعن يستطيع إيجاد عدد من النماذج الأدبية التي تمثل هذه المرحلة من التاريخ الأدبي الجزائري،

المحاضرة الأولى: المشهد الأدبي في الجزائر قبل الاستقلال

مسيرة الحركـة الأدبية في الجزائر قبـل الاستقلال:

وجد المجتمع الجزائري نفسه تحت وطأة استعمار غاشم، نهب الثروات واحتكر الخيرات، فعرف الشعب ضروب المعاناة، وذاق ويلات الفقر والحرمان والأمراض، وأمام هذا الخطب تاه الشعب لاسيما الطبقة المثقفة في دوامة الهموم والمشاغل اليومية، التي لا تنتهي فكان الهدف الأساسي البحث عن لقمة العيش لسد رمق العائل والمعال، هذا الأمر الذي صرف النظر عن بقية الاهتمامات بما فيها المجال الأدبي، نتيجة ضنك العيش الذي فرضه المستعمر.

وهكذا أعاق الوضع الاستعماري نمو الحركة الأدبية والنقدية والثقافية عموما فعمل المستعمر على ترسيخ إيديولوجيته، فكان لزاما ظهور حركة وطنية تهتم بالجانب السياسي المتعلق بالنضال الوطني أكثر من اهتمامها بالحياة الثقافية والأدبية والنقدية، فكان لا يحسب للنقد الأدبي أي حساب، وما وجد آنذاك من نتاج أدبي ونقدي غلب عليه الطرح السياسي والمفاهيم السياسة الدينية الإصلاحية بزعامة المثقفين الإصلاحيين والتوفيقيين*، كما تجسد ذلك في محاولاتهم النقدية الانطباعية، وآراء هؤلاء النقاد ومواقفهم من النصوص الأدبية التي ظهرت في تلك الفترة، والذين أطلق عليهم ما يسمى الرعيل الأول من النقاد.

* – الإصلاحيين فئة من المثقفين رفضوا الاستعمار ونبذوا الحضارة الأوربية وأغلبهم من الذين تلقوا تكوينا سلفيا وارتبطوا بالايدولوجيا الإصلاحية وتأثروا بالنهضة الحديثة ورجال الإصلاح في المشرق على رأسهم محمد عبده وجمال الدين

هذا الوضع الذي خيم على البلاد كان من الاستحالة معه أن يظهر نقد بالمفهوم المتداول آنذاك في الدول الأخرى، يقول عبد الله الركيبي عن حالة النقد في الجزائر خلال هذه الفترة « فالنقد بالمفهوم المتداول اليوم كان منعدما أو على الأقل نادرا»[1]، مستشهدا في ذلك بمقالة نشرها "محمد السعيد الزاهري" في (الشهاب) بتاريخ 17 ديسمبر 1925م يقول فيها :« أعرض على أدبائنا وكتابنا الجزائريين هذه القصيدة القصيرة، وأرجو من كل أديب (قدر على نقدها) أن ينتقدها انتقادا أدبيا، وأن يرينا نموذجا من هذا الفن الجميل، فن النقد الذي هو ميز الخبيث من الطيب، والخطأ من الصواب، والصحيح من الفاسد، فإننا عرفنا أن بالجزائر شعراء فحولا، وكتبة متقدمين،وعرفنا مقدرتهم في أغلب وجوه الكتابة إلا في النقد الأدبي، فإننا لم نعرف مبلغه ببلادنا الجزائر، فهل يتقدم أحد من حملة الأقلام إلى هذه القصيدة، فينتقدها بإنصاف يكشف عن سيئاتها،ولا يظلم حسناتها؟، ليس الانتقاد هو الاقتصار على المدح أو القدح متى وجدا معا»[2].

مقولة الزاهري هذه والتي بما فيها من تحد واضح وجريء للنقاد، إنما هي في الواقع نتجت عن إيمانه بعدم وجود نقد قادر على تناول قصيدته بما فيها من عيوب وحسنات، وإن تعمد إضعافها « فالزاهري تعمد إبراز الضعف في هذه القصيدة ليختبر يقظة النقاد ومدى قدرتهم وحذقهم في الكشف عن مواطن الخلل والجودة فيها»[3].

الأفغاني وغيرهما، وأهم ممثل لهذه النخبة رواد جمعية العلماء المسلمين، أما التوفيقيين فهم الذين حاولوا الاستفادة من التراث العربي والأخذ بجانب من الثقافة الفرنسية، ومعظم هؤلاء من مزدوجي اللغة .

عمل المستعمر بكل ما أتيح له من وسائل وبشتى الطرق الممكنة، على طمس الهوية الوطنية، ساعيا إلى بتر كل ماله صلة بالوطن والقومية العربية والأمة الإسلامية من دين ولغة وثقافة، عن طريق شن حملات التشويه والتزييف وإتلاف التراث وتسريب الأفكار الرامية إلى التشكيك في الشخصية القومية والوطنية والإحساس بدونية وقصور الثقافة الوطنية والقومية والإسلامية وبضعف اللغة العربية بأنه لا يمكن لها أن تكون لغة حضارة وعلم ومعرفة، ومن جهة أخرى تقديس لكل ما هو أوربي والإشادة بتفوقه وعظمته في كل المجالات العلمية والمعرفية والحضارية والتكنولوجية وحتى الإنسانية، وهو في كل هذه الحالات يسعى إلى استثمار كل ما يمكن أن يساعده في تحقيق مراده.

وأمام هذا الوضع المتأزم رأى الاستعمار ضرورة تطبيق سياسة الثقافة المحروقة على غرار ما طبقه على الأرض، وما سماه الجنرال الفاشي (بيجو) سياسة الأرض المحروقة[4].

وكان من الطبيعي أن ينتج الوضع الناجم عن السيطرة الكولونيالية وفي كل المجالات، والتي جرت خلالها محاولة طمس الشخصية الوطنية بكل مكوناتها، والوقوف أمام كل محاولة لتحقيق نمو ثقافي ذو طابع وطني، وضع متأزم كان له تأثير مباشر وغير مباشر على الأدب والنقد، فكان النقد الأدبي مجرد انطباعات وأراء رجال الإصلاح ومثقفي جمعية العلماء المسلمين، فكان النقد الأدبي يفتقر إلى فكر نقدي ومنهجية نقدية محددة، قادرة على استنطاق الإبداع الأدبي وتحليله شكلا ومضمونا، وإذا عدنا إلى مسيرة الحركة الأدبية في الجزائر خلال هذه الفترة فإنه يمكن تقسيمها إلى المراحل التالية:

1- مرحلة الإرهاصات :[5]

ويمكن أن تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ويمثلها كوكبة من الكتاب والشعراء المحافظين من أمثال عمر بن قدور، عمر راسم، سعد الدين الخمار المولود بن الموهوب، محمد مصطفى بن الخوجة، وغيرهم...الخ، وقد حاول هؤلاء التمهيد من خلال محاولاتهم إلى نهضة أدبية من خلال أعمالهم التي قد تكون خطبا ومواعظ أو قصائد تشحذ الهمم أو مقالات، فكانت هذه الأعمال إرهاصات لنهضة أدبية سينبثق فجرها ولو بعد حين.

بعد الانتكاسة السياسية ثم الثقافية والفكرية والأدبية نتجت عنها فترة انكماش ثقافي شبهها الناقد بالغيبوبة[6]، تواصل إحساس الشعب الجزائري بالغبن والانكسار المادي والمعنوي، وهو ما عانى منه الأدباء والكتاب بطبيعتهم الأكثر إحساسا بالمعاناة الوطنية بكل صورها المادية والمعنوية، «فامتد ذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر حين بدأ يسري في المجتمع انتعاش واعد باستئناف النهوض بعد الانكسار بفعل عوامل مختلفة داخلية وخارجية»[7]، وبعد يقظة الشعب من غيبوبته والتي طالت، ساهم في ذلك مجموعة عوامل قسمها عمر بن قينة إلى عوامل داخلية وخارجية.

فبالنسبة للعوامل الخارجية نذكر « إدراك الجزائريين الذين كانوا يترددون على أوربا وفرنسا الفروق الظالمة بين سياسة (فرنسا) في وطنها، وسياستها في (الجزائر) كما

لعبت الصلة بالمشرق العربي دورا بارزا بفضل الصحف والنشريات التي كانت تسرب إلى التراب الوطني فتدعو إلى اليقظة والنهوض عربيا، ومن بينها صحيفة (المؤيد) المصرية...»[8].

ويأتي في مقدمة الأسماء التي مثلت هذه الفترة، " الشيخ عبد القادر المجاوي" الذي كتب سنة 1877 رسالة في ثلاثين صفحة بعنوان " إرشاد المتعلمين" دعا فيها « مواطنيه والمسلمين أمة إلى نبذ الركود وإلى اليقظة والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة ولقد أصدر كتابا في موضوعات شتى عالج فيها بعض الجوانب الاجتماعية والإصلاح الديني فكان من الشخصيات الجزائرية التي تركت أثرا ملموسا في الحياة الثقافية أواخر القرن الماضي، وأوائل القرن الحالي»[9].

عرف الوضع الثقافي بداية مرحلة جديدة ببوادر حركية ثقافية، أبرز سماتها بروز كتاب مختلفين، لعل أولهم " المجاوي" والذي ولد في مدينة تلمسان سنة 1848م، حيث درس ثم انتقل إلى المغرب لمتابعة دراسته في فاس وطنجة وجامع القرويين، ثم عاد بعد ذلك إلى الجزائر ممارسا للتعليم، فدرس في كل من جامع الكتاني والمدرسة الحكومية بالإضافة إلى نشاطه خارج عمله الرسمي كمدرس ومحاضر في المدارس الحرة والمساجد، فأستطاع أن يحدث عن طريق دروسه ومحاضراته العامة تأثيرا كبيرا في الأوساط الفكرية والشعبية وواصل المجاوي نشاطه في التدريس بانتقاله إلى العاصمة بمدرسة الثعالبية، إلى أن عين إماما خطيبا بجامع سيدي رمضان بالعاصمة، وبقي في قمة نشاطه، إماما قديرا وأستاذا متمكنا ومؤلفا نشيطا ورجل إصلاح، وقد تخرج على يديه أعلام في الثقافة

والتعليم، في مقدمتهم " حمدان الونيسي" و" عبد الحميد بن باديس" و" المولود بن الموهوب"[10].

يعد المجاوي شخصية فكرية مثلت بداية لإرهاصات فكرية تبشر بانتعاش الواقع الفكري والثقافي في البلاد، إلى أن وافته المنية بمدينة قسنطينة في السادس من أكتوبر 1914، حيث دفن هناك بعد أن ألّف أكثر من ستة عشر كتابا كان معظمها في النحو والبلاغة، و«قد كان من بين الذين عملوا جاهدين من أجل رقي العربية، ونصاعة الدين الإسلامي، كما كان أحد المصلحين الأوائل في التصدي للآفات الاجتماعية والخرافات والعادات السيئة، والسلوك الرديء...»[11].

وقد كان الشيخ "أبو القاسم الحفناوي" أبرز أسماء هذه الفترة بعد "المجاوي"، ويعد كتاب " تعريف الخلف برجال السلف" أشهر كتاب ألّفه "الحفناوي" إذ يعد « من أمهات المصادر والمراجع في التراث الفكري الجزائري الحديث التي لا يزال الرجوع إليها مهما، وهو كتاب حافل بقائمة طويلة من أعلام وفكر وثقافة وأدب ودين بلغ عددهم (418 مع نصوص ذات أهمية قد يتعذر العثور اليوم على بعضها في غيره»[12].

أما الشخصية الأخرى والتي فرضت نفسها كأبرز أسماء المرحلة هي شخصية "محمد بن أبي شنب"، وهو«مؤلف وباحث جامعي بلقبه العلمي (دكتور) الذي أحرز عليه برسالتين اثنتين في (جامعة الجزائر) الأولى عن الشاعر العباسي (أبي دلامة) والثانية عن

الألفاظ التركية والفارسية في الدارجة الجزائرية»[13]، وله عدة مؤلفات من البحوث والدراسات، وكان للرجل نشاط فعال في الحركة الثقافية والأدبية، من خلال مقالاته وأبحاثه، «كما حقق آثارا أدبية من أهمها أو أهمها رحلة الورتلاني (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) التي حققها وكتب تقديما لها...»[14].

وهكذا فرض محمد بن أبي الشنب نفسه كشخصية متميزة في الحركة الأدبية والثقافية آنذاك، واستطاع التأثير في محيطه الجامعي، « فكان أحد الذين تطور الأسلوب الأدبي على أيديهم تطورا واضحا، متقدما خطوات عن ذي قبل رغم إبقائه على السجع وغرابة اللفظ في بعض كتاباته»[15].

أما في مجال الشعر فيرى "عمر بن قينة" أن أهم ثلاث شخصيات من أبرز الأسماء كتبت الشعر والنثر إلا أنها عرفت أكثر بالشعر، أولها شخصية " محمد بن عبد الرحمان الديسي" (1854-1921)، و" عاشور بن محمد بن عبيد الحنفي " (1854-1929)و" عمر بن قدور الجزائري" (1886-1932)، فقد ظهر تفاعل هؤلاء مع القضايا العربية والإسلامية، وإن اتفق هؤلاء في تكوينهم الديني إلا أنهم اختلفوا في رؤيتهم لبعض القضايا[16].

2 – مرحلة الانطلاق :

وتنحصر هذه المرحلة زمنيا بين الحربين العالميتين، أي بين العشرينيات والأربعينيات، وقد عرفت الجزائر خلال بداية هذه الفترة ظهور بوادر نهضة أدبية، بسبب عدة عوامل ساعدت على ذلك على رأسها « بروز صحافة وطنية بوجهها الإصلاحي خصوصا فصارت منبرا للكلمة شعرا ونثرا، وبدأت تبرز أقلام مختلفة، في مثل "المنتقد" للشيخ ابن باديس (1925) وقد تلتها بعد منعها في السنة نفسها " الشهاب " (1925-1939) وفي البصائر التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، بسلسليتها (الأولى 1935- 1945) و(الثانية 1947- 1956) وغير هذه مثل(الشعلة 1949-1951) لأحمد رضا حوحو وغيرها ، حيث فتحت هذه الصحافة صدرها للإنتاج الأدبي »[17] .

بالإضافة إلى انتشار التعليم، وإحياء التراث، وتوثيق الصلة بالنهضة الفكرية والأدبية بالمشرق العربي، وكان ذلك على أيدي الرعيل الأول من الرواد من أمثال " ابن باديس العقبي، الميلي ، التبسي.." وغيرهم خاصة من أعضاء جمعية العلماء المسلمين وروادها فكما كان هؤلاء دعاة ومربين كانوا في نفس الوقت أدباء وشعراء، فاستطاعوا بانطلاقهم في أعمالهم من قناعات ذاتية نابعة من معايشتهم ميدانيا للظروف السائدة في مجتمعهم أن يشقوا طريقهم في إطار حركتهم الإصلاحية على مصادر التراث العربي الإسلامي، وكنوز الأدب العربي في عصوره الزاهية ومضوا ينهلون من منابعه، ويغترفون بآن من روافد النهضة الفكرية والأدبية الحديثة، ويقول الشيخ الهادي السنوسي بهذا الصدد: « من منا معشر

الجزائريين من لم يفتح عينيه منذ انتهت الحرب الكبرى على ما ظلت تنتجه مدرسة إسماعيل صبري وحافظ وشوقي وطه والعقاد وأحمد أمين والمنفلوطي والزيات وغيرهم من رجال الرعيل الثاني للنهضة الأدبية في الأقطار العربية»[18].

3- مرحلة التفاعل الفني(1945-1962)

بعد الحرب العالمية الثانية ظهر إلى جانب الجيل السابق مجموعة من الأدباء المجددين من جيل الخمسينات، من بينهم عبد الوهاب بن منصور، بن ذياب سعد الله، رضا حوحو، بن عاشور، بوشوشي وآخرون، فأتيح لهؤلاء فرصة الإطلاع على تيارات فكرية وأدبية مختلفة، فانكبوا على الاغتراف من العطاءات الفكرية والأدبية المتنوعة للتراث، واتصلوا بتيارات النهضة القومية في منابتها الأصلية بالمشرق والمغرب، وأفاد بعضهم بطريق مباشر من مناهل الأدب الغربي، فتميزوا بذلك في مرجعيتهم الثقافية عمّن سبقهم بجمعهم فيها مابين الأخذ بحظهم من كنوز التراث وإفادتهم إفادة مثمرة من عطاءات النهضة الفكرية والأدبية في المشرق، وبين تفتحهم تفتحا واعيا أصيلا على الثقافة والأدب الغربيين فساعدهم ذلك على أن يدفعوا بالحركة الأدبية دفعة قوية على طريق الجيل السابق بحرصهم على الاستمرار في عملية التركيز في أعمالهم على الواقع وتصوير قضاياه، ومواصلة عملية تحرير الخطاب الأدبي من بقايا مظاهر الصنعة والزخرف،والانتهاج فيه منهج السهولة واليسر والوضوح، فازدهرت بذلك العملية الأدبية، وتجلى ذلك في تطوير التجربة الشعرية تعبيرا وتصويرا، وانعكس ذلك في حسن استثمار ما استصلحه السابقون في

الحقول النثر، فنمت فروع جديدة في رياض المقالة والقصة والمسرحية والقصيدة الجديدة[19].

وكانت رسالة الأديب في ظل هذه الظروف التي فرضها المستعمر، هي تحرير الوطن وكانت صور النضال والالتزام والتضحية من أجل الوطن، هي السمة الغالبة في كتابات الأدباء الجزائريين، ودراساتهم النقدية في «هذه المرحلة التي لم يخرج فيها الأدب الجزائري بصفة عامة عن الصبغة التقليدية المتسمة بالتعبير المباشر والضعف الفني والتركيز على الشعر»[20].

ثانيا - حالة النقد الأدبي في الجزائر:

كان دور النقد قبل الاستقلال محدودا جدا، وهو«لا يقوم على أسس نقدية ثابتة أو أصول تعارف عليها النقاد العرب أو النقاد المعاصرون، فهو بذلك أقرب إلى خواطر أملتها ظروف معينة، ومناسبات عامة، وهذا لا يعني التقليل من قيمة تلك المحاولات النقدية، فهي بلا شك تعبر عن مرحلة نقدية مهما كان مستواها، وتصدر عن اتجاهات فكرية وفنية، ولكن من الواضح أيضا أنها لم تصل إلى مرحلة التأسيس لمدرسة نقدية جزائرية لها خصائصها ومميزاتها الفكرية والفنية، على غرار ما ظهر في المشرق العربي»[21].

ولعلّ أكبر ما يؤكد صحة الكلام السابق هو ما تضمنته دراسة أبي القاسم سعد الله عن النقد الأدبي في الجزائر، والتي نشرها في مجلة الآداب البيروتية سنة 1960، والتي قال

فيها «إذن كيف نتحدث عن النقد الأدبي في الجزائر، بينما نحن لا نعترف أولا نكاد نصدق أن عندنا أدبا ناضجا شق طريقه مع قافلة الأدب العربي المعاصر أو الأدب العالمي؟!والحق أن صواب هذه الفكرة ظاهر إلى حد بعيد، سيما إذا أخذت على سطحيتها، فالأدب عندنا - كفن- لا يزال متخلفا من حيث الكم والموضوع والأسلوب، فليس هناك –بالعربية- قصة توفرت لها شروط الإجادة في التقنية والعلاج، أو شعر تطور مع عواطف الناس وظروفهم ولا نتاج مسرحي واكب المرحلة الراهنة من تاريخنا، وعبر عن مشاعرنا في الحب والكفاح وبالتالي ليس هناك أدب متكامل يعيش مع مشاكلنا الذهنية والعاطفية فكيف بعد هذا نحاول الحديث عن النقد الأدبي، بينما النقد والأدب صنوان يسند ويكمل أحدهما الآخر؟ ولكن ما دمنا نعترف بوجود محاولات من الأدب فمن الحق أن نعترف كذلك بوجود محاولات أخرى في النقد، إنها مجرد محاولات تتلاءم مع المستوى الفني لإنتاجنا الأدبي»[22].

إن في كلام أبي القاسم سعد الله إثبات آخر عن ضعف النقد في هذه المرحلة من مراحل الحياة الأدبية والفكرية والنقدية من تاريخ الجزائر، فهو يعترف بعدم وجود أدب ناضج في جميع الأجناس الأدبية، سواء تعلق الأمر بالقصة أو الشعر أو النثر أو المسرح، وبالتالي حسب رأي الناقد بما أن الأدب والنقد مرتبط بعضهما بالآخر فهما صنوان يكمل ويسند أحدهما الآخر، فسيكون حتما من الاستحالة وجود نقد يضاهي ما وجد آنذاك في البلدان الأخرى، رغم أنه هناك من لا يوافق الناقد ويرى بأن النقد قد يسبق الإبداع الأدبي بأصنافه على الأقل على المستوى التنظيري، «كما أن تواجد النقد لا يرتبط في أساسه

بوجود الأدب إلا إذا قصدنا الجانب التطبيقي منه فقط، فالنقد في حقيقته أوسع من ذلك، وبالتالي يمكن له أن يسبق الإبداع ويتقدمه، والعكس صحيح أيضا، مادام لكل منهما دوره ومكانته في الحركة الثقافية والفكرية وفي بناء الحضارة»[23].

وإذا كان كلام سعد الله صحيحا بالنسبة للنقد الأدبي في هذه الفترة، فلا يمكن موافقته على ما ذهب إليه في نظرته للأدب الجزائري قبل الاستقلال، فالأدب الجزائري ورغم الظروف القاسية التي كانت تمر بها البلاد آنذاك والتي تكلمنا عليها سابقا إلا أنه استطاع ولو بجزء يسير أن يشارك الشعب في ثورته التحريرية بما أتيح له من وسائل متواضعة، وإن أردنا إثبات هذا الكلام لوجدنا أسماء بارزة من الشعراء يتقدمها مفدي زكرياء والربيع بوشامة والأمين العمودي وغيرهم.

ومما زاد في ضعف النقد في الجزائر في بداياته الأولى هو ضعف القراء أنفسهم في ذلك الوقت في المستوى المعرفي والفكري والفلسفي، وعدم استيعابهم لنظريات الأدب وفنونه وخاصة النقد الأدبي، وعدم مواكبة النقاد التقليديين للنقد الأدبي الحديث في المشرق العربي، بسبب عدم وجود اتصال واحتكاك بين الجزائر وبقية البلدان العربية، وأيضا للموقف الرافض لكل ما هو غربي النظر على أنه استعماري غير أصيل، فقد كانت الرؤية محددة وفق منظور إيديولوجي إصلاحي، الذي يرى ضرورة « التسليم غير المشروط بأفضلية الماضي على الحاضر، واتخاذه معيارا لقياس جودة الأدب والفن»[24].

وعدم وجود حركات نقدية تواكب الإبداع، قد يرجع أيضا إلى ضعف الثقافة، وقصر التجربة الإبداعية الجيدة، وانشغال الأدباء بالتدريس وجريهم وراء لقمة العيش «فمعظم هؤلاء الكتاب كانوا معلمين في المدارس العربية الحرة، كما كانوا يتفرغون للوعظ والإرشاد والتعليم الديني خلال كل شهر رمضان، فينتقلون فجأة من الأدب إلى الدين»[25].

فكان عليهم مواجهة سياسة المستعمر الرامية إلى طمس الهوية الوطنية والقضاء على الدين الإسلامي، فعملوا كرجال إصلاح على تربية النشء تربية إسلامية، فغلبت الموضوعات الدينية في كتاباتهم، فنلاحظ البشير الإبراهيمي يعالج عدة موضوعات دينية رغم أن النزعة الأدبية غلبت على أسلوبه في الكتابة، فيطلق العنان لخياله ويرخي الحبل لبيانه، فتنقلب مقالاته رغم عناوينها الدينية من الدين إلى الإنشاء الأدبي الرائع، وإلى الخيال الخصيب البارع[26].

وما يلاحظ على أبناء الجيل الأول من النقاد هو المزج بين النشاط الفني والممارسة السياسية، لذا يلاحظ إطلاق الأحكام النقدية بناء على القيم الإسلامية التي كان منبعها تيار الحركة الإصلاحية انطلاقا من مبادئ جمعية العلماء المسلمين، فقد « كانوا في مجال البحث عن القيم الأخلاقية للعمل الأدبي لا يتصورون غير القيم الإسلامية التي تشكل روح التراث العربي»[27]، فمثلا " محمد سعيد الزاهري" كتب مقالا عن طه حسين بعنوان " طه حسين شعوبي ماكر" شن عليه حملة هجومية كال له السب كيلا، ودعا إلى حرق كتبه

وطالب بتحريم إدخالها إلى الجزائر، لاسيما كتابه في الشعر الجاهلي،فكانت الأحكام النقدية التقليدية وليدة الفهم الإصلاحي للأدب والنقد مستمدة من نظرة رجال الدين والإصلاح وهي نظرة اتسمت بالتحفظ، فلم تتجاوز نظرة رجال الدين للشعر خصوصا، النظرة المتعارف عليها في ذلك الوقت لقبول أغراض الشعر أو رفضه من مدح للمشايخ وكبار رجال الإقطاع، والتغني بمآثر الأولياء والصالحين، والتغزل بالذات الإلهية وغير ذلك.

ويظهر ذلك جليا في توجهات الشيخ البشير الإبراهيمي لتلاميذه، وتصريحاته في جريدتي الشهاب والبصائر، وفي الألقاب التي كان يطلقها مجانا على الشاعر "محمد العيد أل خليفة " وغيره، ولم ينج كذلك الناقد حمزة بوكوشة من هذه الأحكام النقدية التي يطلقها على الشيخ " عبد القادر المجاوي" إذ يقول « هو من بواكير الحركة الإصلاحية بالجزائر وقد شارك فيها بأدبه وشعره وخطبه، فكان شاعرها العبقري، وخطيبها المصقع، وأديبها الألمعي...»[28]، فمثل هذه الأحكام النقدية المجانية لا تخدم النقد ولا الأدب نفسه، فتقديس الشاعر بالألقاب لا فائدة ترجى منه ولا يخدم الشعر والفن.

فالنقد الأدبي خلال هذه الفترة لم يستطع القيام بتوجيه الحركة الأدبية في الجزائر، هذا الفراغ النقدي جعل الأدباء يشاركون في إبداء الرأي وإثراء المناقشات المختلفة، التي كانت كثيرا ما تلاقي الرفض والهجوم والعداء، وأن الصورة التي تجاهلها النقاد في تلك

المرحلة وأدباؤها لو تمت لأغنت الأدب والنقد معا، والمقصود هو تلك التجربة الإبداعية الشعرية الشعبية التي عبرت بصدق عن الواقع الجزائري وتحولاته[29]

توقف النقد عن الأحكام الانطباعية لن يسهم أبدا في تطوير الحركة النقدية، ولا يغني الأدب في شيء، فهذه الأحكام الانطباعية تفقد النقد أهم أدواره في تربية أذواق القراء، وتثقيفهم عن طريق توضيح مضامين الأعمال الأدبية، وكشف خباياها ومكامن الجمال فيها، لاستظهار المواقف والتجارب الإنسانية، التي يتم تقديمها من طرف الأدباء وتضمينها أعمالهم، فهذه الانطباعات تشكل لنا صورة من صور النقد التقليدي، وهي تعتبر الخطوات الأولى نحو نقد أكثر نضجا و أكثر تطورا.

من الواضح أن النظرة التقليدية للفن والأدب لم تركز سوى على الموروث الديني لحماية الجزائري من الضياع في متاهات الاستعمار، فلم تخرج نظرتهم إلى الحياة عن الأخلاق العامة والعادات المحلية، ومحاولة محاكاة القدامى لفظا ومعنى .

إنّ الكتابة النقدية في هذه الفترة من تاريخ الجزائر كانت للتسلية وللترويح عن النفس، بالإضافة إلى إظهار البراعة اللغوية المنمقة والتشدد في الأخلاق التقليدية، «لذا جاءت مرتبطة ارتباطا وثيقا بأعمال الخير وأداء واجب الدين والطاعة لرجال الإصلاح والإقطاعيين، الذين عززوا مكانتهم الاجتماعية نتيجة نشاطهم السياسي»[30]، فاتسمت الأحكام النقدية الانطباعية بالنظرة الجزئية التي تتماشى ومستوى الفكر الإصلاحي الذي

يرى النقد تابعا للأدب يعدل ويصحح الأخطاء، ويبين سمين الأبيات من غثها، وهذا ما جعل عبد الله الركيبي يقوم النقد بقوله « إن النقد في هذا الثلث من القرن لم يتطور»[31].

إن البواكير الأولى للنقد قد اتسمت بالضعف نتيجة التبعية المطلقة للفكر الإصلاحي ونتيجة الضغط الاستعماري، الذي أخضع الفكر والإبداع لسيطرته بعد أن أخضع الإنسان نفسه، فقيّد الإبداع ووقف أمام تطور الأدب والنقد، والمتتبع لنقاد هذه المرحلة يجد أن رؤيتهم للعمل الإبداعي لم تتجاوز دائرة اللفظ والمعنى، وهذا ما أدى بهم إلى التعليق بمثل «فلان أديب جزل اللفظ سلس الأسلوب، واضح العبارة »[32].

وفي نفس السياق يمكن أن نستحضر مقالا للناقد "صالح بوغزال" الموسوم بعنوان (ما لهم لا ينطقون؟)، برؤية مخالفة يرد فيها على عبد الوهاب بن منصور ردا خفيفا لطيفا، حيث يوافقه على كثير مما ذهب إليه، ناظرا إلى مقالة (بن منصور) على أنها مشروع «ثورة ضد الركود والجمود والعقم»[33]، وقد علل بن غزال ظاهرة الركود الأدبي في الجزائر بانعدام التشجيع أولا، وضعف نسبة القراء الذين يفهمون العربية ثانيا، نتيجة استحواذ الفرنسية عليهم، ضف إلى ذلك الرقابة السياسية والثقافية والاجتماعية التي فرضها الاستعمار، ويمكن القول أن هذا الركود الأدبي في بلادنا قد شلّ طريق النقد الأدبي خلال هذه الفترة.

فقد كان النقد في بلادنا متشعبا ملتويا لم يتح له أن يعرف شيئا من الاستقامة طول ذلك العهد، وإنما كان هناك طائفة من الكتاب تستهويهم بعض القضايا، فيعلقون عليها أو يسوقون انطباعاتهم حولها، أو يقرضونها معجبين بها، مرغبين الجمهور في قراءتها ولما كان الغضب يستولي على طائفة منهم، كانوا يفقدون التحكم في عواطفهم، فيندفعون في ردود كأنها تشاؤم، ومناقشات هي القدح والجرح والهوى أدنى منها إلى النقد القائم على أصوله المعروفة، وقواعده المتعارف عليها عند حذاق الكتاب[34].